

فلم سينمائي يقدم تعريفاً فلسفياً للعولمة

المواطن العالمي/ الإنساني في بابل

ما هي العولمة؟ هل هي وضع قوة العمل والإنتاج ومنتجات الأفكار والمعرفة والخدمات عبر الحدود الدولية في حالة شيوع؟ أم أن العالم أصبح سوقاً واحدة تحكمه قوانين السوق؟ هل هي فساد الأخلاق العامة؟ هل هي أننا لم نعد قوادرين على غلق أبوابنا ونوافذنا التي تاتينا منها رياح الفساد؟ هي أن خلافاً بين زوجين أمريكيين (ريتشارد (براد بيت) وسوزان (كيت بلانشيت) من سان دييغو في كاليفورنيا، من شأنه أن يؤدي إلى قتل طفل في جبال المغرب العربي (يوسف)، وطرد عجوز مكسيكية بعد خدمة أكثر من 18 سنة في منازل الأمريكيين، وإذا وجدتم صعوبة ما في الأخذ بهذا التعريف، فعليكم العودة إلى: فيلم بابل.





اعداد / أفاق سبيريز



فيلم بابل، لوحة الحكمة المفقودة من عالمنا، حاز 24 جائزة عالمية، دعوة لإعادة التأمل في أحوال الحاضر وما جلبه العنف، في أكثر القضايا المعاصرة إثارة للاهتمام، الإرهاب الدولي، العنف والعنف المضاد، حالة الهلع العام السائدة في العالم تمخضت عن حالات إبادة ورعب أشد، وتمخض الفأر عن جبل، والفيلم المكون من 3 قصص ترتبط بشكل ضعيف ببعضها البعض، أساسه في الحقيقة، القصة التي تدور في المغرب، في بيئة جبلية قاسية.

الفلم ذو طابع فولكلوري يفتخر بإغراقه في الرؤية الاستشرافية،

ومشاهده التي تحمل التفسير ونقيضه، رؤية للمخرج المكسيكي اليخاندرو غونزاليس إيناريتو، بطولة براد بيت وكيت بلانشيت، يراهن على جمهور صبور لا يمل بسرعة، وهي أقرب للمسرح، بسبب تقاطع المشاهد، والسرد المتوزاي لأحداث كل مشهد، أي تجري الأحداث كلها تقريباً في وقت واحد، وحواره بأربع لغات (الإسبانية والإنجليزية والعربية واليابانية) وجري تصويره في ثلاثة بلدان من ثلاث قارات

مختلفة (المكسيك، الولايات المتحدة/ أمريكا الشمالية، اليابان/آسيا، المغرب/أفريقيا)، والتنوع ليس لإظهار مفاتن البلاد التي جرى فيها التصوير، لكن ليبين للعالم أن الهم الإنساني واحد، والمؤلف والمخرج أظهر سبب عقدة الفلم أن زوجين أمريكيين يقع بينهما خلافات حادة، ولاسترضائها يأخذها في سفرة سياحية، تنتهي بمقتل طفل (يوسف) في المغرب العربي على يد رجال مكافحة الإرهاب المغربيين إرضاءً للسفير الأمريكي في مراكش، بينما في المكسيك أناس

الصيد المسجلة باسمه في اليابان لدليله السياحي المغربي، الذي يبيعها بدوره لأحد الرعاة الذي يعيش في الجبل...

بدأ الفلم بمشهد مغربي يتجول وعلى ظهره حقيبة، كيس فيه بندقية، قال له الرجل الذي أعطاه إياها أنها تصيب من بعد 3 كلم، يشتري البندقية بـ 500 درهم مغربي، الوالد يوصي (يوسف وأحمد): أن لا يراهما أحد بالبندقية، وإذا رأيا أحداً أن يخبئها بسرعة، في الجبل يريهان مع قطع الماعز، يريان ابن أوى صغير، يطلق عليه أحمد النار بارتباك فيخطأ ويهرب ابن أوى، ثم يطلقان النار على شاحنة ركاب سياحية، تتوقف على أثر الطلقة، ليبدأ المشهد الثاني: يتصل والد مايك وفرانك بالمربية ويقول بأنه لن يعود، فرانك يطلب من المربية أن تترك الضوء لأنه يخاف أن يموت في الظلمة مثل شقيقه الصغير سام، نام فمات وهو نائم، المربية إميليلا تطلب إجازة لحضور حفلة زفاف ولدها، يرفض طلبها، تتصل بمربية صديقتها، فترفض مساعدتها، تزور مربية أخرى فترفض أيضاً، يصل سانتياغو من المكسيك ليأخذ عمته إلى حفل زفاف ولدها، المشهد الثالث يعود إلى المغرب، براد بت وزوجته تقول له: ريتشارد لماذا أتينا إلى هنا؟ - To Be alone لنكون وحدنا، تخاف أن تشرب الكوكا لأنها لا تثق بالماء الذي فيها، الحافلة تسير في طريق جبال المغرب، نساء منقبات يحملن فوق رؤوسهن الأنية الحافلة تسير مع موسيقى تصويرية هادئة جداً بعزف منفرد على آلة القانون، تصاب الزوجة تتوقف الحافلة، المشهد الرابع: مباراة كرة طائرة للفتيات الصم البكم، يطرد الحكم فتاة صمًا، تخرج وهي تسبه وتشتمه بالإشارة، يعاتبنها صديقاتها في منزع الملابس لأنها لو كانت قد سيطرت على أعصابها لفزن في المباراة، يوصلها والدها يريد تناول الغداء معها ترفض لأن-أ على موعد مع صديقاتها في نادي جاي بوب، تنتظر والدها فتأتيها رسالة منه(إنه على موعد مع طبيب

بسطاء فقراء يحتفلون بزواج في حفل بسيط ومتواضع، إحتفالاً شعبياً جميلاً في بساطته وتلقائيته، وفرحة الطفلين الذين انتقلا من برودة مشاعر والديه وعزلة البيت الذي تربيا فيه إلى جو مليء بالمرح والدفء، ينتهي العرس يعودون، وعند الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة يوقفهم حراس الحدود فنرى فظاظة تعامل هؤلاء الحراس الأمريكيين مع أناس بسطاء، يكتشفون أن المربية مهاجرة غير قانونية، فيندفع الشاب المكسيكي التمثل في محاولة للإفلات بالسيارة، ثم يتركهم في البراري المعزولة عند الحدود، وبعد ساعات من العذاب والبحث تهتدي المربية إلى سيارة بوليس تنقذها هي والطفلين لينتهي بها الأمر في قسم البوليس، يتم طردها من الولايات المتحدة بعد خدمة أكثر من ثمانية عشرة عاماً، تعود إلى المكسيك ليستقبلها ابنها الذي حضرت عرسه منذ أيام.

الفقراء البسطاء يعملون لياكلوا ويطعموا أولادهم ويشتررون بندقية صيد ليحموا عوائلهم وأغنامهم من الذئاب، بينما الأمريكي وزوجته يصطافان، ويشترى الياباني بندقية الصيد للاستمتاع بقتل الحيوانات بصيدها دون حاجة إلى لحومها، وحين تنتهي سياحته يبيع بندقية

بابل بين الإنسانية والأوسكار





رصاصه حركت العالم المسكون بالخوف من الإرهاب

مشفى في أوروغواي، سوزان تنزف والمشفى
يبعد ساعة ونصف، تصل الحافلة إلى قرية
ريتشارد يحمل زوجته وهو يصرخ اتصلوا
بالإسعاف بالسفارة الأمريكية، يقول له السواح
أن عليهم المغادرة وتركه وزوجته لأنهم خائفون من
أهل القرية لئلا يقتلونهم، يقول أحدهم أنه في
قرية مصرية ذهبوا سائحا أمريكياً، اتصل
ريتشارد بشقيقة زوجته راتسل ويخبرها بما
جرى لشقيقته، ويطلب منها أن تتصل بمارك في
السفارة الأمريكية في المغرب، وصل الطبيب
الشعبي، يستنتج أن إطلاقه لم تمس العمود
الفقري، ويجب خياطة الجرح وإلا ستنزف حتى
تموت، سوزان ترفض وتتوسل زوجها ألا تتركه
يفعل، يبدأ الخياطة، تصرخ. المشهد السابع: في
اليابان الوالد عند طبيب الأسنان، اثنان من
الشرطة يبحثان والدها، والدها يرسل لها

الأسنان في الساعة (3)المشهد الرابع: عودة إلى
المغرب، أحمد وشقيقه يدعيان أن المأ في
معدتهما، تأمرهما والدتهما بأن يذهبا ليغتسلا،
يجلسون على مائدة الطعام، يقول الوالد: إنه عاد
مبكراً لأنهم أغلقوا الطرق بسبب هجوم إرهابي
أدى قتل سائحة أمريكية، الولد يسأل والده: كيف
تعرف أنها ماتت، يجيبه: أن الشرطة أخبرته.
المشهد الخامس: الولدين مع المربية في سيارة
ابن شقيقها سانتياغو، تصل السيارة إلى إحدى
ضواحي المكسيك ويستقبلها ابنها خوليه
برسيادو، الطفلان يلعبان مع بقية الأطفال في
حظيرة الدجاج، سانتياغو يقطع رأس دجاجة
بيده بدون سكين. المشهد السادس: في المغرب
يتساءل ريتشارد عما إذا كان هناك مشفى قريب، لا
ينزل من الشاحنة المتوقفة، يوقف سيارة مارة، لا
تتوقف، تعود الحافلة إلى الجنوب حيث أقرب

رسالة(سأعود بعد ساعة)تقلب الصمء قنوات التلفاز(مسؤولين مغاربة يحققون في مقتل سائحة أمريكية في حادث إرهابي).المشهد الثامن: تحقيق مع سائق الشاحنة، بحث عن مكان إطلاق النار، يعثرون على أربع خراطيش، ومن البعر اكتشفوا أنهم رعيان ماعز والبنندقية عيار 27 ملم، وصل المحققون إلى إبراهيم دخلوا بيته بوحشيه وهمجية أمروهم أن ينبطحوا على الأرض:

– لماذا أطلقت النار على الشاحنة؟

– لم أطلق النار على أحد...يضره بقوة...قال

بعثها يوم أمس.

يتوقف المحققون ليسألوا(أحمد ويوسف)عن عبدالله عبدوم وهو والدهم، يقول الصغير يوسف وأحمد خائف ومندهبش(عبدوم يعيش خلف الجبل ونحن نعيش هنا بمفردنا مع أمنا)يعودان سريعاً ليخبرا والدهما، يتشاجر الوالدان. المشهد التاسع: حفل زفاف بسيط، سعادة الفقراء بما هو موجود، يطلبون من المربية إيميليا أن ترقص، ويرقص الطفلان معها، موسيقى والكل يرقص، يطلق أحدهم النار ابتهاجاً بالمناسبة، يرتعب الطفلان. المشهد العاشر: المغرب، الإذاعة تقول بأن الوزير حسن حزان قال(إننا قد قضينا على الإرهاب لكن الولايات المتحدة تفسر الأمور كما يحلو لها، عجوز تشعل عوداً تضعه في فم سوزان، فتغيب عن الوعي، في الحافلة يمرض أحد الركاب، تقول زوجة المريض للسائق أن يشغل التكييف فيرفض لئلا يستهلك الوقود، يدخل بعضهم إلى ريتشارد ويقولون له سنرحل ونتركك، يتوسل إليهم ويترجاهم البقاء ويقول الإسعاف ستصل قريباً، ريتشارد قرب زوجته يسمع صوت الحافلة تتحرك، يركض ليووقفهم دون فائدة. المشهد القادم للصين، ثم عودة المربية التي تصطم مع شرطة الحدود، حيث هي كانت تقيم بصورة غير شرعية، والدخول إلى الولايات المتحدة ليس سهلاً كالخروج، يشكون بخطف الطفلين، سنتياغو يهرب، يضل سيارات الشرطة

التي تطارده، ينزل عمته ويقول لها ابقني هنا لا تتحركي سأعود إليكم، صحراء، تيه، لا يوجد أية علامة فارقة تدل على وجود بشر، يطلع النهار، تضربهم الشمس تتورم شفاههم وخاصةً الطفلين، تترك الطفلين وهما عاجزين عن الحركة، بسبب العطش والجوع والإجهاد، تذهب هي بسرعة لتجلب النجدة، تعثر عليها الشرطة الأمريكية، معاملة سيئة، يرفضون استماعها أو تصديقها، ثم يعثرون على الطفلين ويطردونها من الولايات المتحدة ويتصل الشرطة بريتشارد ويخبرانه، في المغرب المحققون يعودون بعد أن اكتشفوا كذب الطفل، يبدعون بإطلاق النار، يرد الصغير يوسف عليهم بإطلاقه، فيردون بعنف فيقتلون الصغير أحمد....

1- عتبة العنوان:

لماذا اسم بابل، وليس في الفلم شيء له علاقة ببابل؟ وإذا بحثنا في ميثولوجيا الأديان القديمة، سنجد دولة عبرية كان اسمها بلالا، كما سنجد في سفر إشعياء من التوراة (العهد القديم) (15/13: كل من وجد يطعن وكل من انحاش يسقط بالسيف، وتحطم اطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نسائهم...19/13: وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمورة، لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور ولايخيم هناك أعرابي ولا يربض هناك رعاة، بل تربض هناك وحوش القفر ويمأ البوم بيوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش، وتصيح بنات أوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعم ووقتها قريب المجيء وأيامها لا تطول، 14: 4 إنك تنطق بهذا الهجوم على ملك بابل وتقول كيف باد الظالم بادت المغطرسنة، 14: 21 هيئوا لبنية قتلا باثم إباثهم فلا يقوموا ولا يرثوا الأرض ولا يملأوا وجه العالم مدنا، 14: 22 فأقوم عليهم يقول رب الجنود وأقطع من بابل اسما وبقية ونسلا وذرية).

فلم سينمائي يقدم...



تبقى الذئاب والثعالب بعيدة عن الماعز، وبين رجل الأعمال الياباني الذي يشتري البندقية للاستمتاع بقتل الطيور والحيوانات.

تحاول مربية الطفلين الأمريكيين أن تأخذ إجازة لحضور زفاف ولدها، فيرفض طلبها، تبحث عبثاً عن مساعدة من الجيران لرعاية الأطفال أثناء غيابها، وعندما تفشل تتصل بابن أخيها "سانتياجو" ليحضر بسيارته القديمة، وينقل خالته والطفلين عبر الحدود إلى المكسيك لحضور العرس، كما يتضح الفرق بصورة أجل وأكبر بين المجتمع الشرقي الأقرب إلى الروح الطيبة السمحة، والغربي المادي، الذي لا يهتم سوى الاستمتاع بملذات الحياة ولو اضطر في سبيل هذه الملذات أن يسبب الكثير من الأضرار لغيره من البشر، يساعد الزوج رجل قروي ينقل المرأة المصابة إلى بيته، ويتدخل أهل القرية كلهم لتقديم المساعدة، رغم فقرهم، وعلى النقيض موقف زملاء الرحلة السياحية الأمريكيين في الباص، لا يهتمهم سوى استئناف رحلتهم تاركين المرأة المصابة وزوجها، ويبدأ الزوج وهو يركض خلف الباص الذي تركهم في منطقة معزولة دون تقديم ولو كلمة طيبة كمواساة لما أصاب زميلاً لهم، ثم يأتي شاب مغربي مسلم يتحدث الإنكليزية

2- تقنية المقارنة في السرد:

دائرة تلتقي فيها الأضواء الساقطة من ثلاث قصص مختلفة، في بلدان متباعدة ولأشخاص مختلفين، تربطهم حقيقة أن العولمة التي تهدد طفلين صغيرين في الولايات المتحدة، بالموت عطشاً في صحراء المكسيك، هي ذاتها التي لا تكتفي بالتهديد ضد طفلين مغربيين (أحمد ويوسف)، بل تقتل أحدهما ظمأً.

الفقر والبساطة للمجتمع المكسيكي كانعكاس للحفل المتواضع لزواج ابن المربية المكسيكية، وسعادة المجتمع المغربي كانعكاس لعائلة راعي الماعز وهو يعيش في منطقة منعزلة عن أية خدمات صحية أو كهرباء أو مياه صالحة للشرب أو غير ذلك، والحياة التي يعيشها رجل الأعمال الياباني الثري الذي انتحرت زوجته وربما قتلها هو، وكأبة ابنته الوحيدة بسبب عدم التفاهم مع والدها، والحياة التي يعيشها الزوجين الأمريكيين، رفاهية وخدمة ومربية لطفليهما، ورغم ذلك لا يوجد تفاهم ولا سعادة.

والمقارنة بين مزارع مغربي يعيش في منطقة جبلية، يشتري بندقية آلية تستخدم في الصيد من أحد جيرانه (حسن إبراهيم)، ويامر ولديه الصغيرين (يوسف وأحمد) بتعلم استخدامها كي

يحمل الزوجة المصابة إلى بيته، ويتصل بالمسؤولين في السفارة الأمريكية، ويتصل الزوج بمربية أطفاله المكسيكية لإبلاغها أنه هو وزوجته سيتأخران في العودة إلى البيت.

وفي النص نجاحان وفشلان، وكما هو في أدناه:

نجاح

الزوج الأمريكي ينفذ زوجته، المربية تنقذ الطفلين
الفتاة اليابانية تنجح في إنقاذ والدها.

فشل

الوالد المغربي المسلم في إنقاذ ولده
المربية المكسيكية في الحفاظ على وظيفتها

لو أن الزوج لم يتصل بالمربية، لما فكرت أن تأخذ الطفلين معها إلى حفل زواج ولدها، لتتصاعد الأحداث وتضيع العجوز ومعها الطفلين في الصحراء وتضربهم الشمس، فتتورم شفثاهما ويوشك الثلاثة على الموت، ولولا أن المربية العجوز تقرر أن تبقى الطفلين على حافة الهلاك لتحاول هي أن تجلب مساعدة ما، وهي بهذه الروح تحاول بكل ما أوتيت من قوة إنقاذ الطفلين، وحينما يعثر عليها أفراد الشرطة المحلية الأمريكية يعاملونها كمجرمة مختطفة.

الشرطة تحاصر قرية في جبال المغرب، بحثاً عن الإرهابي الذي أطلق النار على السائحة الأمريكية، ويعامل الشعب بالقسوة المعتادة، التي تصاحب إنطلاق تصريحات مسؤولين في السفارة الأمريكية، ومن السلطات المغربية، ووسائل الإعلام المختلفة، كل هؤلاء لا تهتدأ لهم نائفة إلا بعد إطلاق الرصاص على الابن الأكبر للقروي الذي ابتاع البندقية وقتله دون أي سبب، غير غطرسة وإجرام أجهزة مكافحة الإرهاب، أما الابن الأصغر أحمد حينما يرى شقيقه يوسف يسقط قتيلاً، ينهار باكياً ثم يسلم نفسه صارخاً أنه هو الذي أطلق

الرصاص وأصاب المرأة الأمريكية. في اليابان حيث تقود تحريات الشرطة اليابانية إلى رجل ياباني أرمل من أغنياء رجال الأعمال يهوى الصيد، ويتضح أنه باع البندقية لأحد القرويين المغاربة كان يعمل دليلاً له أثناء رحلة صيد في المغرب، لرجل الأعمال الياباني ابنة مصابة بالصمم والبكم انتحرت أمها، وهي تشعر بغربة شديدة مع أبيها، وهي تخشى على أبيها حينتمت تسمع أن رجال الشرطة يريدون رؤية أبيها، فتخشى أنهم قدموا من أجل حادثة انتحار والدتها، فتعترف عن بعض ما أخفاه والدها في التحقيق في انتحار والدتها، وحينما تشعر بخطر فقدان والدها، تتحقق من أنها تحب والدها كثيراً، فتصير كالمجنونة وهي تدافع عن والدها.

دور الصحافة ووسائل الإعلام في التسهيل والتحليل الخاطيء، حينما حولوا الحادث إلى هجوم إرهابي، والعلاقات الأمريكية المغربية المضطربة هي التي أخرجت المساعدة عن السائحة الأمريكية، وأدت في النهاية إلى مقتل الطفل يوسف.

العوامة حقيقة تجسدت في الترابط المفروض بين الشعوب في كل مكان، فالصير الواحد هو سبيل البشرية، فالإنسان البسيط تطحنه العوامة حتى لو كان صبياً صغيراً في صحراء المغرب، أو امرأة مكسيكية قضت عقدين من عمرها في خدمة منازل الأمريكيين، والسلطات الحكومية تمارس أبشع أنواع الإرهاب مع شعوبها باسم مكافحة الإرهاب.

ما هي العوامة؟ العوامة هي أن من شأن حلم من أضغاث الأحلام أن يجعل من العالم أكثر خطراً مما كان قبل هذا الحلم، فبوش الذي احتل العراق استناداً إلى مقولته الخرافية بأن الرب قد أمره بالغزو، تسبب بقتل أكثر من مليون ونصف عراقي وتهجير أكثر من أربعة ملايين، وإشاعة الفوضى والفساد بكل أنواعه، وإذا وجدت صعوبة ما في الأخذ بهذا القول، فعليكم بزيارة بغداد.